## ثقافة

# "أندريه مالرو" بين منعطفات العصر

ولد اندريه مالرو في باريس في ٣ تشرين الثاني ١٩٠١ والقسم الاول من حياته غير معروف جيدا . هل دخل مدرسة اللغات الشرقية ؟ اي دور لعبه في الصين لدى الكيومانتنغ ؟ ذهب عام ١٩٢٣ مع زوجته كلارا تحت ستار بعثة للاثار في لاوس العليا ، فبلغ كانتون ثم شانغهاي ( بدا انه ينتمي الى قيادة بوردين ) ، ليعود الى فرنسا عام ١٩٢٧ . وغداة تحليق فوق العربية السعودية عرض على المجلة الفرنسية الجديدة رؤوسا من رخام ( من مملكة الاندو ـ سكيت القديمة ) ، ليجيء بها الى كابول . جائزة غونكور عام ١٩٣٣ لكتابه «الوضع البشري». جاهد الى جانب الشيوعيين في قلب اللجنة العالمية المعادية للفاشستية والعصبة الدولية ضد معاداة السامية . قاد سربا جمهوريا اثناء حرب اسبانيا. اوجز « الامل » عام ١٩٣٧ . حرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ في فيلق للعربات . مقاومة : اوقفه الالمان عام ١٩٤٤ . تحرر بواسطة F. F. I. كولونيل يتولى قيادة فرقة الالزاس واللورن ( ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ ) . وزير الاستعلامات ( ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦ ) ، تبع الجنرال ديغول في اعتزاله ، انضم الى التجمع الشعبي الفرنسي ، من جديد ، عضو في الحكومة ( وزير الاستعلامات ثم وزير دولة مكلف بالاعمال الثقافية) منذ اول حزيران ١٩٥٨ حتى ١٩٦٩ حين اعتزل ديغول فتنحى مالرو معه . منذ ذلك الحين اعتكف مالرو في قصره جنوبي باريس ، منصرفا الى الكتابة في « مذكراته المضادة » ، وفي يومياته مع ديغول .

### ■■ نشر اندريه مالرو

**محاولات :** اقمار من ورق ( ١٩٢١ ) ، محاولة الغرب ( ١٩٢٦ ) ، مملكة فرفيلو ( ١٩٢٨ ) ، كتابة الى معبود وهمي ( ١٩٢١ ) .

**روايات :** الفاتحون ( جائزة انترالية ، ١٩٢٨ )، الطريق الملكي ( ١٩٣٣ ) ، الوضع البشري ( جائزة غونكور ، ١٩٣٣ ) ، زمن الاحتقار ( ١٩٣٥ ) ، الامل ( ١٩٣٧ ) ، غرقى التنبورغ ( ١٩٤٣ ) .

**حول الفن :** سيكولوجيا الفن ( ٣ اجزاء ، ١٩٤٧ ) ، اصوات الصمت ( ١٩٥١ ) ، المتحف الخيالي للنحت العالمي ( ٣ اجزاء ، ١٩٥٢ ـ ١٩٥٤ ) ، تحول الالهة ( ١٩٥٧ ) ، مقدمة « لعالم الاشكال » ، « ساتورن » دراسة عن غويا . ( مذكراته المضادة ) منذ ١٩٦٩ حتى توفي اضافة الى يومياته مع ديغول « اللازمني » ١٩٧٦ .

**الناشرون :** غراسيه ، غاليمار .

### ■■ ما كتب عنه

بيار دي بواديفر ، اندريه مالرو ، المنشورات الجامعية ، ١٩٥٢ .

غايتان بيكون ، مالرو بقلمه ، لوسوي ، ١٩٥٣.

اندريه فانديغان ، شبيبة اندريه مالرو الادبية . ج.ج. بوفير م ١٩٦٤ .

سوزان شانتال ، « القلب الخافق » ١٩٧٦

□ □ □

ان « تحالف الشجاعة والذكاء » ـ ذكاء تنبؤي تقريبا ـ جعل في اسرع وقت من مالرو معلما بنظر الاجيال الفتية . كان له الحق في ان يحدثهم عن الموت لانه جابهه والسلاح في يده ، وعن التاريخ لانه صنعه ، وعن القدر لان كل حياته كانت تفسر الشعار الفخور لجان دي لاتر : **عدم المغانأة** . ان مالرو لم يعان شيئا ، فقد اخذ على عاتقه كل شيء . فمنذ سنيه العشرين قابل صعوباته العائلية برهان طموحه المفكر : « بين الثامنة عشرة والعشرين تشبه الحياة سوقا تشترى القيم منه ، ليس بالمال بل بالاعمال . ومعظم الناس لا يشترون شيئا » . (١) ففي احسن حالات النصر ( نصر ١٩١٨ ) تنبأ بخراب اوروبا ، وبالوزن الجديد للشرق ، ومستقبل الشيوعية ، وذهب يبحث في الشرق عن مستقبل العالم ، وبعد هذا لا يهم اذا كان قاد او لم يقد الثورة الصينية ، واقتلع نتوءات بنتاي ـ سري ، واقتحم عاصمة ملكة سبأ المدفونة في الرمال منذ الاف السنين ، وقليلا ما يهم مكانه الصحيح في المأساة لانه كان بالتاكيد شاهدا فيها : ان مالرو هناك ، في جميع منعطفات العصر .

لماذا لم يدهشه توافق الاصوات في العصر ؟ ان مالرو ، بالغريزة يأتلف مع الايقاع اللاهث للتاريخ الحديث . فهو يرافق الشيوعيين حين لم يكونوا كثيرين في الغرب ، ويتركهم (٢) حين يصبح من السهل ان يكون معهم ، حيث اختلاق الجبهة الوطنية اتاح لفرنسوا موريالك ان يستقر على منابرهم . وروايانه الملأى بالموت والتعذيب تبدو اولا اكثر من اجنبية ، بعيدة عن التصديق ، ولكن التعذيب ينشر شراعه على اوروبا . انه ينكر الحب ، ويعيد الحقوق الى لاكلو ، ويجعل من الحب الشهواني غيبيا ( ميتافيزيقيا ) ، والعصر ينادي بتحرر الحواس ويعترف بساد كمعاصر . وابطاله منعزلون ، واضحون ، منفصلون عن كل شيء ، يبحثون عبثا عن « الحياة الاساسية » ، ( ... « الم ، حب ، ذل ، براءة » ) ويبشرون بسيطرة المستحيل على اوروبا المدعوة لتصبح معسكرا واسعا للاشخاص المجهدين . ابتداء من عام ١٩٤٠ غير الصنيع الادبي اتجاهه . فرويات المغامرة الثورية ـ « الغزاة ، ١٩٢٨ » ، و « الامل ١٩٣٧ » ـ تحاصر عصرا يتطور من جديد ، انها تتنبأ بانتصار الشيوعية في آسيا ،حيث الشيوعية هي المنتصرة ولكنها لم تحرر الانسان .وقد عرضت علينا نموذجا للبطل يتحد فيه الوضوح ، والثقافة عند رجل العمل (٣) ولا تخدم « بالضرورة » نجاح عمله . ووضعت قيد الاخراج مشكلة النهاية والوسائل ، وهذه المشكلة ، في السياسة هي من القضايا الحالية .. ولكن لا المقاومة ولا الحرب اوحت لاندريه مالرو مؤلفات روائية جديدة وبدا الينبوع على هذا الصعيد ناضبا . ومع ذلك فان مالرو الكبير هو هنا ، في الحوارات العاطفية التي تبعث الحياة في « الوضع البشري » و « الامل » .

وجاءت الحرب فالتزم مالرو بمنحدر جديد لصنيعه الادبي ـ ذلك الذي يسير من «سيكولوجية الفن » الى « تحول الالهة » . المناجاة تعقب الحوار والفلسفة تعقب المشاهد المعاشة ، وما من شك في ان « المتحف الخيالي » جدد مجمل ثقافتنا الفنية بأن ادخل اليها فنونا غير معروفة جيدا ( بيزنطة ) او معروفة قليلا (الفنون خارج التاريخ، بدائية او متوحشة ) . ولكن جمال النص وبريق الصيغ لا يصلان دائما الى اخفاء بعض المقايسات الخطرة ، والمضمرات الفظة ، ولا متناقضات فكرة منقطعة . ان مالرو « اصوات الصمت » ـ الخائب بالمغامرة والثورة ـ يبحث الان في الخلق الفني عن « عملة المطلق » ، و « النصيب الالهي » للانسان وسر مصيره ، وقد قال ولتر برجر : (٤) « ليست الاحجية الكبرى في اننا القينا على الارض حسب الصدف ، بل في اننا في هذا السجن استخرجنا من انفسنا صورا فيها من القوة مما يجعلنا ننكر عدمنا » .وبعد ان وفق مالرو بين جميع فنون الارض اختتم قائلا : « ان تكالب الناس الغامض لاعادة خلق العالم ليس عبثا لانه ما من شيء يعود ويصبح وجودا بعد الموت ، باستثناء الاشكال المعاد خلقها .. يمكن ان يكون حسنا ان الحيوان الذي يعرف ان عليه ان يموت وهو يتأمل تهكم النجوم الذي لا يرحم ، ينتزع منه نشيد البروج ، وانه يقذفه الى العصور التي سيفرض عليها اقوالا غير معروفة (٥) » .

سوف يكون العلم العصري عاجزا عن اعطائنا معنى العالم ( لان « نظرية الحقل الموحد تهتم بعالم فيه الانسان فائض عن الحاجة » ) . ولكن الفن يستطيع مساعدتنا على ايجاده . ويجعلنا نبلغ شيئا « كالفخ يعلق فيه العالم »

فيما وراء المظاهر عالما « نشعر فيه بالوجود ونجهل الطبيعة » . هذا العالم الاخر « الذي ليس سوى مظهر ولا يدعى الله دائما » ، يعيد « ما يجب ان ينتمي الى الموت » حاضرا في حياتنا .وللتكلم ببساطة ،فسيقال ان الفن ـ او بالاحرى ميثولوجية مالرو عن الفن ـ ياخذها مكان الاديان ، ولكن بابدال يقينها باستجواب دائم . ومالرو ، بسجنه جميع فنون العالم في مراياته الدائرة فانه يحاول بذلك ان يجيب على قلق سنواته العشرين ( « ماذا افعل بالنفس اذا لم يكن هناك اله ولا مسيح؟؟؟ ») ويبرر ـ حتى لو تفلت من « الوضع البشري » ـ ذلك « الحلم بأن يكون الها » والذي كان حلم صباه .

●●

في يوم ٣ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، في باريس ، دخل اندريه مالرو في غيبوبة اخيرة ، نتيجة اصابته بجلطة دموية في رئتيه اودت الى نقله الى مستشفى في ضواحي باريس . وفي ٢٨ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، غاب الى الابد ، بعد ان عاش عشرين يوما في غيبوبة كلية بعد بلوغه الخامسة والسبعين .

قبل ان اندريه مالرو كان متشوقا للكتابة عن حرب لبنان ، خاصة بعدما قرأ عن ابعادهاوظروفها القاسية،وقد همس في اذن صديقه الاديب اللبناني جورج شحادة ، بانه يتمنى ان يكتب ملحمة لبنان لكن الظروف الصحية حالت دون ذلك . كما قيل ان اندريه مالرو كان قد قرر التطوع لخوض حرب بنغلادش !.

## هوامش

(١) قال ذلك لجوليان غرين .

(٢) ان اسباب اختياره معروفة . فمالرو لم يشأ ان يضحي بافتتاعاته التاريخية في سبيل الاخلاص الثوري ، حيث « لم يكن معلوما ان الغد الذي ينشد سيكون ذلك الصراخ الذي يتصاعد من بحر قزوين الى البحر الابيض ، وان نشيده سيكون نشيد السجناء » . من بينهم الى جوريس « كان هناك نوع من الوضوح طوال القرن الماضي ، بحيث يصبح المرء رجلا اكثر حين يقل ارتباطه بوطنه » ، ولكن حركة الاشمئزاز الكبرى التي حدت بروسيا ستالين ان تبعد نشيد الاممية « كنست بضربة واحدة احلام القرن التاسع عشر . وعرفنا منذ ذاك ان المرء لا يصبح رجلا اكثر بصيرورته فرنسيا اقل ، بل في ان تزداد صيرورته روسيا، في كلتا حالتي الافضل والاسوأ فنحن مرتبطون بالوطن ... » ( نداء للمفكرين ـ اذار ١٩٤٨

(٣) نجد هذه الصفة عند امثال تشرشل ، ديغول، او مارتسي تونغ .

(٤) « في غرقى التنبورغ » .

(٥) سيكولوجية الفن ( الخلق الفني ) .

# ... لكنّك أبدًا في الأعماق

انت ... ابدا لن تغادري القلب ولا العقل .
ذاك انك حين تبتعدين عن الذاكرة ، فانما تغوصين في اعماق المشاعر .
وبعض الاشياء ، صدقيني ، لا تموت .
واذا ذبلت فانها تزهر الاف البدائل .
واذا احترقت ، فانما تترك اكوام الرماد تحت وهج النيران المتلظية .
كان شعرك الاسود الممتد على كتفيك يلعب في تلك الساحة الخمرية .
وعيناك التعبتان تنتظران مركب الخلاص الموعود من اكثر من ممر .
وكانت اطراف الاصابع تضغط على باطن اليد .
وكنت تنتظرين مركب الخلاص القادم .
لا الفاشيون استطاعوا انتزاع البسمة عن الشفاه المذبوحة .
ولا « الخوارج » استطاعوا ان يقوسوا القامة الشجاعة .
وظللت تنتظرين ، في السراديب المنسية ، والاكواخ المفتوحة ابدا للضيوف وللرياح . وكلما تقدم فوج يسقط تحت وطأة الاسطورة التي لن تموت
ما زالت الحروف المتدفقة من الشفاه المذبوحة تولول في اذني : « نحن نعذب انفسنا » ... لا يهم الجواب ... بل المضمون . فليس امامنا رغم كل العذاب الا ان نبقى مع هذا الجرى ، ذاك ان الذين يريدون تنظيف المجارير عليهم الا يخشوا اوساخا .
والعينان التعبتان تنتظران في اكثر من اتجاه .
ـ هل يهتمون بمصيرنا ؟؟
ومرة ثانية ... الاجابة غير مهمة ، لكن المهم هو المحتوى ... الا تسمعي الاذاعة والتلفزيون والطنين ... وان « سفينة نوح » ما زالت تبحر .. وانهم قادمون بسرعة . حتى لا تنقلبي الى واحدة من السبايا ، مجهولي الاقامة والمكان . وانهم ان عجزوا عن هذا الطريق الموصد الابواب ، فاياهم والجبل . سيركبون الجبل ويأتوك على جياد بيض مطهمة . يقودهم المرتدون والخوارج ؟
ـ لن اعرف اليأس .. سنقاتل حتى النهاية ؟
اتأمل البسمة الضائعة وراء عفر التراب ، والجسد النحيل الذي اصبح « سمة المرحلة » والقامة الشجاعة وافكر .. « ان سفينة نوح لن تصل ، وما على سكان الجزيرة . الا ان يجمعوا ، ويحرقوا سفنهم ، ويبقون حتى النهاية » . فالوعود كثيرة ، والانجازات قليله ، واولئك يشددون الهجمات ، وما عليك الا البقاء .
ـ كاد العدس ان ينتهي . والماء مخلوط بالطين ، وعشرات الاطفال يذبلون كالشمع ويسقطون على الصدور التي نضب حليبها ؟
تغوص عيناك في الصدر ولكن لا تعلمين ، فالبعض هنا ، ايتها المنسية ، بطونهم تنتفخ حتى الانفجار ، واطفالهم ينامون على سرائر وردية ، و « خصوصياتهم » غير مسموح لاحد بالكلام عنها . لماذا يتلطخ وجهك بالتراب ، بينما طلاء « خصوصياتهم » يكفي لتعبيد طريق كامل من اجل الوصول اليك . لم تعلمي ، ولن تعلمي ان العدس يحتوي مادة الحديد وانه مقو ... وانه .. وانه ... اما الماء ، يا عزيزتي ، فهو ملوث ، في القرية القريبة البعيدة عنكم ، ولذا فان الزجاجات المختومة ، ترافق السادة الى مكاتبهم .
ـ ابو امل ، جرح ، حالته خطرة ، يصر على مواصلة القتال ؟!
ابو امل غير مفصول عن حبك ، انتما تنتظران « المركب الضائع » ذو الاشرعه المثقوبة ، والذي يأكل السوس لبه ، لماذا اصر على استعمال كلمة « عذاب » سأجيبك ، حين تحتدم الامور في النفس ، ولا نمتلك وسيلة التعبير . فليس لنا الا ان نلجأ الى الرومانسية ، والجنة ، والنار ، والجحيم ، وحور العين . ابدا لست متشائما ، ايتها الحبيبة ، انما بين تفاؤل الثوريين ، والحالمين ، بحر واسع ، ممتلىء بالخناجر المسددة الى الظهر ، والرماح المكسورة الاسنة .
حتى الان لا اصدق ان صاحبي قد مات . افتش في زوايا الصحف الصفراء عن خبر ينبىء عن بقائه ، وهو الذي بحث عن الموت لمرات فهرب منه .
وعودة الى الكلمة ... اليس عذابا ان لا يقال عن الانسان انه « بطل » الا حين تعلق صوره في زواريب المخيمات والاحياء الفقيرة ؟
انت ... بجسدك النحيل ، بأصابع يديك ، ببدلتك الزيتية ، بشعرك الاسود الطويل ، الذي تلعب به الرياح ، ببندقيتك التي تنام وتعيش معك كل لحظة ، مطعون في ثوريتك حتي تموتي .. فهل تحبين الموت ؟!
ابو امل مات ببطء ... نقطة دم بعد الاخرى ، وخيط رفيع يفصل بين البقاء والفناء ، حركة واحدة ، ان تظل واقفا ، او ان تركع ، ابو امل لا يحب الركوع .
ـ انتهى كل شيء ، العدس ، الماء ، التموين ، لم يبق الا تصميمنا على الموت ؟
ما بيننا كان خداعا ، فأنا اعرف ان السفن المثقوبة لا تبحر ، وان البحارة الذين يتقيأون كلماتهم الثورية لا يحسنون القيادة ، ولست اعرفك اين ، لكنك ابدا في القلب ، انت المذبوحة بسكاكين البحارة المهترئة .

"أبو خالد"